سورة الليل

مكية وهي اثنتان وعشرون آية مع البسملة وهي ركوع واحد

هذه السورة مكية عند الجمهور. (فتح البيان)

ليكُنْ معلومًا أن لفظ الجمهور -الذي يُستعمل عادة- يعني الأكثرية حينًا، ولكنه يُستعمل لتزيين الكلام فقط في كثير من الأحيان؛ إذ الحقيقة أن الأكثرية -دَعْك الجميع- لا تكون أحيانًا متفقة على قضية، ومع ذلك يقول بعض المفسرين: الجمهور يرى ذلك، ويكون مراده أني وأمثالي نقول ذلك. إن لفظ الجمهور يعني في الاصطلاح كثرة عظيمة، وإذا استُعمل استعمالا صحيحا أصبح ذا أهمية كبيرة، لأنه إذا عُلم أن أكثر الصحابة أو التابعين أو تابعيهم رأوا هذا الرأي أصبح الأمر غيرَ عاديّ، ولكن كما قلتُ إن هؤلاء يستعملون لفظ الجمهور في كثير من الأحيان بمعنى صاحب الكتاب ومن يوافقه الرأي فحسب. إن ما يحدث أن شخصًا يفسّر حينًا آيةً بمعنى، فينقله عنه غيره، ثم شخص ثالث ثم رابع ثم خامس، فيقول الآخرون إن الجمهور يرى ذلك، مع أن المراد أن هذا المعنى ذُكر في خمسة كتب أو عشرة. لقد رأيت أنهم يستعملون لفظ الجمهور من ناحية، ومن ناحية أخرى يذكرون أن فلانًا وفلانًا من الصحابة يخالفون هذا المعنى، مما يعني أنه لا يكون المراد من الجمهور هنا سوى أن العديد نقلوا معنًى ما عن شخص واحد، وبتعبير آخر هم يعنون بالجمهور أكثرية النَّقَلة، وليس أكثرية الصحابة أو التابعين أو تابعيهم.

بيد أن ما ورد عن هذه السورة بأنها مكية عند الجمهور فهو ليس من هذا القبيل، بل هو بالمعنى الحقيقي، إذ لم نجد قول صحابي خلاف ذلك. لا شك أن بعض الناس اعتبرها مدَنيّةً، ولكن هناك صحابيان كبيران مثل ابن عباس وابن الزبير

يقولان إنها مكيّة (فتح البيان)، ولا يوجد قول لصحابي يخالف قولهما، لذا لا بد أن نفسر لفظ الجمهور بمعنى الأكثرية الغالبة.

لقد قال بعض المفسرين إن هذه السورة مكية ومدَنية أيضا (روح المعاني). ولا يرى هذا الرأي إلا الذين يقسمون السور إلى مكية ومدنية نظرًا إلى مضامينها. إنني أُقِرُّ أن مضامين السور أيضًا تساعد في تحديد زمن نزولها، بل لقد رجَّحتُ أنا أيضًا بعض الروايات على غيرها فيما يتعلق بزمن نزول السور بناءً على مضامينها، ولكن لا يجوز لأحد اتخاذ هذا القرار بناء على مجرد الاجتهاد. إن الاجتهاد يمكن أن ينفع في تأييد حادث أو رواية، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه إزاء التاريخ الثابت. من الممكن أن لا يصل أحد إلى حقيقة شيء كما ينبغي فيبني رأيه على العقل والقياس من مضمون سورة، أما الجزم بأن موضوعًا من هذا القبيل لا يوجد إلا في السور المكية أو المدنية فهو نفس الخطأ الذي يقع فيه الكُتّاب الأوروبيون. فمثلا إذا كان التاريخ يؤكد كون سورة ما مكيةً، يقول هؤلاء المستشرقون: كلا، بل هي مدَنية، لأنها تتحدث عن كذا وكذا من الأحداث، أو إذا كان التاريخ يؤكد كون سورةٍ ما مدنيةً يقولون: كلا، بل هي مكية، لأن فيها كذا وكذا من المضامين. والحق أن قولهم مجرد اجتهاد، والاجتهاد لا يغني من التاريخ شيئا. نعم، إذا كان التاريخ يعتبر سورة ما مكية مثلاً، ثم أيّدنا هذا الرأي بالاجتهاد فلا بأس في ذلك؛ أو إذا كان التاريخ يعتبر سورة ما مدنية وأيدنا هذا الرأي بالاجتهاد فهذا جائز بلا شك. باختصار إن الاجتهادَ المبني على مضمون السورة دليلٌ مرجِّحٌ، ولكنه ليس دليلاً في حدّ ذاته. فمثلاً قد اعتبر البعض هذه السورة مدَنية بناءً على مضمونها مِن دون أي شهادة تاريخية، أما أنا فأقوم باستنباط مخالف لرأيهم، ودليلي هو أن مضمون هذه السورة مقارب جدًا لمضمون السورتين السابقتين والسورتين اللاحقتين لها، والشهادة التاريخية أيضًا تؤكد أنها مكية، ولا شك أن استنباطي هذا مقبول لأن شهادة التاريخ تؤيده.

وكما قلت من قبل إن بعض السور السابقة تحثّ بشكل خاص على الصدقات أو تفقُّد الفقراء. علمًا أن بعض السور تتناول في بعض الأحيان موضوعا ما بشكل

عمومي، ولكن كل السور المشار إليها تقول إن الذين يتصدقون وينفقون على الفقراء يزدهرون، وأن الذين لا يتصدقون ولا ينفقون على الفقراء لا يزدهرون ويهلكون كأمة، وهذه السورة أيضًا تتحدث عن الموضوع نفسه. وقد روي عن عبد الله بن عباس أنه قال: "إني لأقول إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل" (فتح البيان). فحيث إن هذه الرواية التاريخية تؤكد أن هذه السورة مكيةٌ فبوُسعنا تقديم شهادتها الداخلية أيضا كدليل مرجِّح ردًا على الذين يعتبرونها مدَنية، ونقول: ليست الروايات وحدها تؤكد أنها سورة مكية، بل إن مضمونها أيضًا يؤكد ذلك، ولكن لا يجوز لنا أن نقدّم الاجتهاد مخالفين هذه الرواية، إلا إذا أيدته روايات أخرى.

فمثلاً لو قدمنا أمام الناس موضوعًا ما وَرَد في القرآن وقد وردت حوله روايات متضاربة، فلا بد لنا من ترجيح الروايات التي يؤيدها القرآن الكريم، أما الاجتهاد حول بعض الأحداث فلا قيمة له وحده مقابل الروايات الثابتة تاريخيا.

والسير وليام موير يرى أن هذه السورة من أوائل السور نزولاً، ويتفق معه القسيس "ويري" أيضا غير أنه يقول إنها نزلت في زمن الدعوة العامة، أي ما بين السنة الثالثة والخامسة، لأنها تتحدث عن عذاب المنكرين. (تفسير "ويري" للقرآن)

وعندي أن رأي القسيس "ويري" صائب، لأن هذه السورة لا تنذر إنذارا عاما، بل تشير إلى أحداث معينة ستقع في المستقبل القريب.

وقد روى البيهقي عن جابر بن سمرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ وما شابهها من سور. (فتح البيان)

الترتيب والترابط:

هذه السورة أيضًا امتداد لموضوع السور السابقة، ألا وهو رقيّ الإسلام، والفرق بينها وبين السورة السابقة لها أن الأخيرة بيّنتْ أن الغايةَ من بناء الكعبة وازدهارَ الأمة لا يتحققان إلا ببعثة إنسان يأتي بنظام كامل، وكان التركيز فيها على حياة هذا المعلِّم، أما هذه السورة فهي تركز على حياة تلاميذ هذا المعلّم

ومعارضيه. السورة السابقة بينت أن الأمة لا تزدهر من دون معلِّمٍ كفء، أما هذه السورة فتبين أن المعلم الكفء لو وجد تلامذة أكفاء لأحدثَ ثورة جذرية في العالم، وأن تلاميذ محمد ﷺ هم من الطراز الأول، ولا يمكن برؤية أحوالهم أن ييأس أحد من التغيير الثوري في حياة العرب. لقد نبّه الله الكافرين هنا إلى أن حياة الذين ينضمون إلى محمد مختلفة عن حياتكم. لا شك أن الأستاذ الكفء يقوم بإنجازات عظيمة في الدنيا، وهذا ما يفعله التلاميذ الأكفاء، أما إذا وجد الأستاذ الكفء تلامذة أكفاء، فيصبح الأمر نورًا على نور، ولكن إذا وجد الأستاذ الكفء تلامذة سيئين فلا يلمع نجمه ولا يكون إنجازه عظيما، كما أن تلامذةً أكفاء لمعلِّمٍ غيرِ كفءٍ لا يحرزون رقيا عظيما. أما هنا فقد وجد الأستاذ الكفء تلامذة أكفاء، وهو دليل بيّن على غلبة دين محمد ﷺ. (للمزيد من التفصيل انظرْ لاحقًا تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿٢﴾

التفسير: قال الله تعالى في السورة السابقة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾.. أي أننا نقدّم شهادةً الليلَ حين يغشى الشمسَ، أما هنا فلم يذكر مفعولاً به لفعل ﴿يَغْشَى﴾، مما يدل على أن لفظ ﴿يَغْشَى﴾ في هذه السورة أشملُ معنًى. علمًا أن قوله تعالى ﴿يغشاها﴾ في السورة السابقة يشير إلى ذلك الجانب من الظلمة الذي يتعلق باحتجاب الأرض عن الشمس فقط دون الجوانب الأخرى للظلمة، أما هنا فيمكن أن يراد بـ ﴿يغشى﴾ معانيَ أخرى أيضا، إذ يمكن أن يراد به أن ظلمة الليل لن تخفي الشمس فقط، بل تخفي أشياء أخرى أيضا.

لقد بيّن الله تعالى في القرآن الكريم أنه ﴿يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ﴾(الأعراف: ٥٥)، وقال تعالى في موضع ﴿ومِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾(الفلق:٤).. أي نعوذ بالله من

ظلمة الليل حين تغشى كل شيء، وكذلك قال تعالى في السورة السابقة أن الليل يغشى الشمسَ حيث قال ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾، وحيث إن الآية قيد التفسير تحتمل هذه المعاني الثلاثة فينبغي أن نتدبر فيها لنعرف ما إذا كانت تفيد المعاني الثلاثة أو معنى واحدا أو اثنين منها فقط.

أرى أن في هذه السورة قرينة تحدِّد مفهوم هذه الآية، وتبين أن المراد إنما هو تغطية الليلِ كلَّ شيءٍ، وهذه القرينة هي الآية التي تلتها: ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾. فلو كان قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ متقدمًا على الآية قيد التفسير لكان الأَولى بنا أن نفسرها بأن الليل سيغشي النهار أو الشمس، ولكن الأمر ليس كذلك، وهذه القرينة تهدينا إلى أن المعنى هنا هو تغطية الليل للأشياء كلها. إذن، فمفهوم الآية أننا نقدم الليل شهادةً حين يغشى كل شيء من إنسان وحيوان وغيرهما.

وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾

التفسير: هناك فرقٌ بين هذه الآية وبين قوله تعالى في سورة الشمس ﴿والنَّهارِ إِذَا جَلاّها﴾، فقال هنالك ﴿إذا جلاَّها﴾ بينما قال هنا ﴿إذا تَجَلّى﴾، ذلك أن تلك الآية تبين أن الأرض تقابل الشمس فتُجلِّيها، أما هذه الآية فتبيّن أن النهار يتجلّى بالاستضاءة من ضوء الشمس. بتعبير آخر كان التركيز هنالك على أن هذا المعلِّم كامل في مجاله، وسينفع الدنيا بفيوضه، أما هنا فالتركيز على براعة التلاميذ. وعلى العموم لا فرق لو قلنا إن المعلم علّم التلميذ أو قلنا إن التلميذ تعلم على يد أستاذه، بيد أن في قولنا "إن الأستاذ علّم" تركيزًا على جهود الأستاذ وحسن أدائه لواجبه، وأما في قولنا "إن التلميذ تعلّم من أستاذه" فالتركيز على اجتهاد التلميذ. كذلك فالتركيز في قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى﴾ على إضاءة النهار؛ أي على كفاءات الشخص الذي هو بمثابة الأرض أو التلميذ، أما قوله تعالى ﴿والنَّهارِ إِذَا جلَّاها﴾ فالتركيز فيه على كفاءات الأستاذ.

وليكنْ معلومًا أن الله تعالى قد ضرب هنا مثال الليل والنهار كما ضربه في السورة السابقة، ولكن المثالين يختلفان معنًى؛ ذلك أن سورة الشمس تتحدث عن ضوء النهار أولاً، ولذلك ذُكرت الشمس أيضا أولاً. فقيل ﴿والشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾، وقيل مقابلها ﴿والنَّهارِ إِذَا جلَّاها﴾، ثم ذُكر القمر في المقام الثاني فقيل ﴿والْقَمَرِ إذا تَلاها﴾، وقيل مقابلها ﴿واللَّيْلِ إذا يَغْشَاهَا﴾.. وهكذا ذُكر النهار مقابل الشمس والليل مقابل القمر. ثم كما ذُكرت الشمس أولاً والقمر بعدها، كذلك قُدّم ذكر النهار على ذكر الليل، وذلك أن الحديث هنالك عن شمس النبوة وقمر الرسالة.. أي عن الإفاضة والاستفاضة. بمعنى أن أحدًا أفاض نوره وأن الآخر استفاض من نوره، ولهذا السبب ذُكر النور والنهار قبل ذكر الليل والقمر. أما في هذه السورة فذُكر الليل قبل النهار لأن التركيز هنا ليس على كمالات الرسول ﷺ، بل على كفاءات أتباعه ومقارنتهم بالكفار، فلأن الكفر حينها كان غالبًا وكثيرًا ذُكر الليل أولاً، ولأن المسلمين كانوا قلّةً وفي المؤخرة ذُكر النهار متأخرًا. لقد ذكر الله تعالى في السورة السابقة أننا قد جعلنا في أفق السماء شمسا روحانية لإضاءة العالم، ومهما حاولت الدنيا تغطية ضوئها فلن تقدر على منعه من الانتشار، بل سيزداد هذا الضوء قوة وانتشارا حتى يحيط بالعالم كله؛ ولكن بعد انقضاء زمان طويل سيعرض أهل الأرض عن هذه الشمس فيختفي ضوؤها عن الأنظار، ويغشاهم الظلام، وعندها سيخلق الله قمرًا يكتسب النور من تلك الشمس الروحانية فينير العالم تارة أخرى. فحيث إن الله تعالى قد بدأ الحديث في السورة السابقة عن عصر الإسلام فكان طبيعيا أن يبدأها بذكر الشمس والنهار، أما هذه السورة فتعقد مقارنة بين الكفر والإسلام، والكفر أسبق زمنًا من الإسلام، لذا ذُكر الليل هنا قبل النهار. ثم لما كان الكافرون في ذلك العصر كُثرًا والمسلمون قلة، فلذلك أيضًا ذُكر الليل هنا قبل النهار، وهكذا أنبأ الله تعالى أن هذا الليل الذي يغشى المسلمين سينتهي الآن ليطلع بعده النهار، أو أن أنواع الضلال والفساد الناتج عن هذا الليل سوف يزيلها الآن أصحاب النهار (للمزيد من الشرح انظرْ تفسير الآية التالية).

وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾

التفسير: كان أبو الدرداء ﷺ شديد الغلوّ حول هذه الآية؛ إذ كان يرى أن الآية الأصلية هي: "والذَكرِ والأنثى"، وليس ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثى﴾. فقد ورد عن علقمة قال: قدمتُ الشامَ، فأتى أبو الدرداء، فقال: فيكم أحد يقرأ على قراءة عبد الله؟ قال: فأشاروا إليّ. قال: قلت أنا. قال: فكيف سمعتَ عبدَ الله يقرأ هذه الآية: (وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى والنَّهارِ إِذَا تَجَلَّى والذَّكَرِ والأُنْثَى)؟ قال: وأنا هكذا سمعتُ رسول الله ﷺ يقول. فهؤلاء يريدوني أن اقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾، فلا أنا أتابعهم. (البخاري: كتاب التفسير، وتفسير الطبري)

هذا الموضوع مذكور في عدة كتب من كتب الحديث بمتون وأسانيد مختلفة عن أبي الدرداء. وليكن معلوما هنا أن الفرق بين القراءات موجود منذ البداية، والمسلمون الذين تنقصهم المعرفة الكاملة يصابون بالقلق لدى سماع مثل هذه الروايات، ويظنون أنها إذا صحّت، فلا يصح قولنا إن القرآن الكريم محفوظ تماما وأنه لم يتطرق إليه أي تغيير وتبديل. والحق أن استنتاجهم هذا باطل، لأن منكري النسخ الذين يؤمنون بحفظ القرآن الكريم حفظا تاما يعترفون أيضًا بالقراءات منذ بداية الإسلام، ومع ذلك يؤكدون أن قراءةً لا تنسخ قراءة أخرى ولا تغيّر المعنى.. أي أن من المحال أن تذكر قراءةٌ معنى لا تحمله قراءة أخرى، نعم، يمكن أن توسّع قراءة ما نفس المعنى وتصدّقه أيضا. والحق أن الله تعالى قد أنزل القرآن على سبعة أحرف (البخاري، كتاب فضائل القرآن).. أي جعل الله له سبع قراءات، وذلك بسبب الفروق الموجودة بين اللهجات العربية المختلفة وتوسيع نطاق المضامين القرآنية. فيجب أن لا ينخدع أحد بسبب القراءات فيظن أن في القرآن اختلافا، بل القراءات نتيجة طبيعية للفروق الموجودة بين اللهجات العربية المختلفة آنذاك. ففي كثير من الأحيان يكون اللفظ واحدا، ولكن ينطقه أهل بلد بطريقة وأهل بلد آخر بطريقة أخرى، وهذا لا يعني أن هذا اللفظ قد تغيرَ أو أن معناه قد تغيرَ، كلا، بل يبقى اللفظ كما هو تقريبًا، كما يبقى معناه هو هو، كل ما يحدث هو أن شعبا إذا

لم ينطق بذلك اللفظ نطقا صحيحا فإنه يصوغه بلهجته بطريقة أخرى. كان عدد سكان الجزيرة العربية في زمن النبي ﷺ قليلا نسبيًا، وكانت القبائل تعيش بعيدة بعضها عن بعض، فلذلك كان هناك فرق كبير بين لهجاتها وأساليب النطق. كانت لغتهم واحدة، ولكنهم كانوا يختلفون في نطق بعض الكلمات، وفي بعض الأحيان كانت قبيلة تستعمل كلمةً لأداء مفهوم بينما كانت قبيلة أخرى تستخدم كلمة أخرى لأداء نفس المفهوم. فأجاز الله لرسوله ﷺ أن يسمح لمختلف القبائل باستعمال كلمات بديلة مكان كلمات يصعب عليهم نطقها، وقد ظلّ الحال على ذلك إلى أن أصبحت القبائل العربية أمة واحدة. ولولا هذا السماح لتعذرَ حفظُ القرآن وقراءته على كلّ مَن لم يكن من سكان مكة، ولم ينتشر القرآن بينهم بهذه السرعة.

وهذا الفرق اللغوي بين القبائل لا يزال قائما بين غير المثقفين حتى اليوم. إن المثقفين يتعلمون بالكتب لغة واحدة، ولكن غير المثقفين الذين يتعلمون اللغة مشافهةً، تروج فيهم اللغةُ القَبلية بدلاً من لغة الدولة. عندما ذهبتُ للحج كان مع قافلتنا شاب يمني عمره حوالي ١٧ سنة، وكان خادمًا لأخينا السيد أبي بكر الذي كان رجل أعمال، وفي الطريق كنت أحدّث هذا الفتى بالعربية، فرأيتُ أنه يفهم معظم حديثي، ويردّ على كلامي، ولكنه كان أحيانًا ينظر إلى وجهي مذهولا قائلا: لم أفهم كلامك. فكانت تأخذني الحيرة وأقول: هذا الشاب يفهم العربية، ومع ذلك يتوقف أحيانا ويقول لي: لم أفهم كلامك! فلما وصلتُ مكة المعظمة قلتُ لأحد الناس: هذا الشاب عربي ويجيد العربية، ولكنه لا يفهم كلامي أحيانا، فلا أدري سبب ذلك. فأخبرني الرجل أن هذا الشاب يمني، وهناك اختلاف كبير بين اليمنيين والحجازيين حول معنى بعض الكلمات، فلا يتفاهمون أحيانا. ثم حكى لي طريفة أنه كانت في مكة امرأة ثرية، وكان عندها خادم يمني، وكانت المرأة تدخن النرجيلة، وكان إناء النرجيلة عندهم من الزجاج، ويسمونه الشيشة. فقالت للخادم يومًا: غيِّر الشيشةَ؛ وكانت تقصد أن يغيّر ماءَها، فقال لها: ستّي، هذا طيب.. أي لا يزال هذا الإناء جميلا. فقالت له: قلتُ لك غيِّر

الشيشةَ. فقال لها في حيرة: ستّي، هذا طيب! فزجرتْه وقالت: أخادمي أنت أم سيّدي؟ قلتُ لك غيِّر الشيشةَ. أتغيِّرها أم لا؟ فحمل الشيشة خارج الغرفة وضربها بالأرض وكسرها. فقالت: ماذا فعلت؟ كسرتَ هذا الإناء الغالي؟! فقال: لقد قلتُ لك مرارًا إنه طيب، ولكنك لم تقبلي قولي، فلماذا تغضبين الآن؟ فكادت تَميّزُ من الغيظ. فقال لها بعض مَن يعرف اللهجة اليمنية: لا ذنب لخادمكِ، لأننا نحن الحجازيين نعني بتغيير الشيشة تغييرَ مائها، أما اليمنيون فيعنون بالتغيير الكسر.. ففَهِمَ خادمك أنك تريدين كسر الشيشة، ولذلك كان يقول لك مرارا: ستّي، هذا طيب، فلماذا تريدين كسره. فلمّا أصررتِ عليه بتغيير الشيشة كسرها المسكين.

فترى أن جملة (غيِّر الشيشة) بسيطة، ولكن بسبب الفرق في اللهجات فهِمها الخادم اليمني على عكس مراد سيدته. ومثل هذه الكلمات التي يختلف معناها باختلاف اللهجات لو قرئت في القرآن بصورتها الأصلية لأدركنا مدى معاناة القبائل المختلفة في فهم القرآن الكريم، فدرءًا لهذا النقص أجاز الله لهم استبدالها بكلمات مماثلة في المعنى تساعدهم على فهم القرآن، ولا تشُقُّ على أصحاب القبائل المختلفة. وهكذا ظلّ المفهوم القرآني كما هو، وأعطاهم الله كلماتٍ أو تعابير أخرى مكان الكلمات والتعابير التي لا يعرفونها، وذلك حفاظا على مفاهيم القرآن الكريم وحتى لا يصعب عليهم فهمه نتيجة اختلاف اللهجات، بينما ظلت القراءة الأصلية للقرآن هي هي باللهجة الحجازية.

وبعد الاطلاع على هذا التفصيل لا يصعب على أحد أن يدرك أنّ هذا الإذن كان مؤقتا، وأن الوحي الأصلي هو نفس ما نزل على رسول الله ﷺ في البداية، وكان استعمال كلمات مترادفة مكان بعض الكلمات الأصلية جائزا ما دامت القبائل العربية لم تتّحد بعد. وفي خلافة عثمان رضي الله عنه لما أصبحت المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية اتّحدت القبائل العربية بدلاً من أن يبقى أهل مكة أو المدينة أو نجد أو الطائف أو اليمن منغلقين على أنفسهم في مناطقهم الخاصة غير مطلعين على لهجات الآخرين وتعابيرهم، إذ صار الحكم عندها بيد أهل المدينة

الذين شكّل المهاجرون إليها من مكة شريحة كبيرة فيها. ثم إن أهل المدينة أنفسهم كانوا قد تعلموا اللهجة المكيّة بصحبة المهاجرين. كان زمام الحكم وتطبيق القانون والمال بيد أهل المدينة وكانوا محط أنظار الناس كلهم، فكان أهل الأمصار الأخرى كالطائف ونجد ومكة واليمن وغيرها يفدون إلى المدينة بكثرة، ويخالطون الأنصار والمهاجرين فيها ويتعلمون منهم الدين، فأخذت لغة الجميع تتوحد. ثم إن بعضهم كان قد استقر في المدينة، فصارت لغتهم حجازية أيضا، ولما كان هؤلاء يرجعون إلى بلادهم علماءَ وأساتذةً فلا بدّ أن يكون لهم تأثير على أهالي منطقتهم. كما أن الحروب أتاحت للقبائل المختلفة فرصة العيش معًا، ولأن القادة كانوا من أكابر الصحابة فكانت صحبتهم ورغبة الناس بتقليدهم عاملا كبيرًا على توحيد اللغة. فمع أن أهل القبائل المختلفة وجدوا صعوبة في فهم لغة القرآن الكريم في البداية، إلا أن المدينة لما أصبحت مركزا للعرب بحكم كونها عاصمة للدولة، وأخذت شتى القبائل والشعوب يفدون إليها تباعا وبكثرة، فلم يكن هناك مجال لهذا الاختلاف في اللهجات، لأن كل المسلمين ذوي المزاج العلمي كانوا قد تعلموا لغة القرآن، فلما وقفوا على لغته حقَّ الوقوف أمر عثمانُ ﷺ بالاكتفاء بقراءة القرآن بلغته الأصلية التي نزل بها.. لهجةِ الحجاز دون اللهجات الأخرى (البخاري، كتاب المناقب). وكان قراره هذا يعني أن الناس قد بدءوا يفهمون اللهجة الحجازية عموما فلا مبرر للسماح لهم بقراءته بلهجات بديلة.

والشيعة الذين يخالفون أهل السنة يقولون بسبب هذا القرار العثماني أن المصحف الحالي هو مصحف عثمان، والحق أنه اعتراض باطل كلية. الواقع أنه في عهد عثمان ﷺ كان قد مضى زمن طويل على اختلاط العرب، فكانوا قد اطلعوا على الفروق الموجودة في لهجاتهم اطلاعا كاملا، فلم يبق هناك أي حاجة للسماح بقراءة القرآن بقراءات أخرى. هذا السماح كان مؤقتًا حيث كان الإسلام في بدايته وكانت هناك قبائل وشعوب مختلفة، وكانت الفروق البسيطة بين اللهجات تؤدي إلى قلب بعض المعاني، ودفعًا لهذا اللبس سُمح للناس بقراءة بعض الكلمات الرائجة في لغة قبائلهم مكان كلمات الوحي الأصلي للقرآن لكي لا يكون هناك

عائق في فهم أحكامه والعمل بتعاليمه، ولكي يفهم أحكامَه كلُّ ذي لهجة بلهجته ويقرأها أيضا بلهجته. فلما انقضت عشرون سنة على هذا السماح، وانقلب الزمان وتغيرت الشعوب وأصبح العرب الذين كانوا قبائل متفرقة أمةً قوية حاكمة تدير النظام وتنفذ القانون وتنشر التعليم وتقيم الحدود والقصاص، لم يجد الناس صعوبة في فهم لغة القرآن الأصلية، فألغى عثمان ﷺ هذا السماح الذي كان مؤقتا. وهذه كانت مشيئة الله أيضا، ولكن الشيعة يرون أن أكبر جرائم عثمان ﷺ أنه ألغى القراءات المختلفة، وأبقى على قراءة واحدة. مع أنهم لو فكّروا لأدركوا بسهولة أن الله تعالى لم يأذن بقراءة القرآن بقراءات مختلفة إلا في الفترة الثانية لا في الفترة الأولى المكية.. وهذا يوضح بجلاء أن القرآن نزل بلغة الحجاز، وأما فرق القراءات فحصل بإسلام القبائل الأخرى؛ إذ كان بين قبيلة وأخرى اختلاف في نطق بعض الحروف أو في معاني بعض الكلمات، فسمح النبي ﷺ بإذن رباني لهؤلاء القبائل باستبدال هذه الكلمات أو نطقها، ولكن هذا ما كان يغيّر معاني الآيات ومفاهيمها، بل لولا هذا الإذن لتغيرت معانيها. والدليل على ذلك أن النبي ﷺ علّم عبد الله بن مسعود* سورة بطريقة وأقرأها عُمَرَ بطريقة أُخرى، لأن عمر كان من الحضر، وعبد الله بن مسعود راعٍ وكثير الاختلاط بالبدو، وبين لهجتَي الفريقين فرق كبير. وذات يوم كان عبد الله بن مسعود يقرأ تلك السورة، فمر به عمر فوجده يقرؤها بشيء من الاختلاف عن قراءته، فتعجّب عمر وقال إنه يغيّر بعض الكلمات، فلَبَّبَه بردائه وقال تعال

* يبدو أنه قد حصل هنا سهو، لأن هذه القصة تتعلق بهشام بن حكيم بن حزام وليس بعبد الله بن مسعود، وهي في البخاري، كتاب فضائل القرآن كالآتي: عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدٍ الْقَارِيِّ أَنَّهُ قَالَ سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّاب ﷺ يَقُولُ: سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَؤُهَا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَقْرَأَنِيهَا. وَكِدْتُ أَنْ أَعْجَلَ عَلَيْهِ ثُمَّ أَمْهَلْتُهُ حَتَّى انْصَرَفَ ثُمَّ لَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَجِئْتُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقُلْتُ إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا فَقَالَ لِي أَرْسِلْهُ ثُمَّ قَالَ لَهُ اقْرَأْ فَقَرَأَ قَالَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ ثُمَّ قَالَ لِي اقْرَأْ فَقَرَأْتُ فَقَالَ هَكَذَا أُنْزِلَتْ إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ. (المترجم)

أعرضك على رسول الله، لأنك تقرؤها على خلاف ما هي. فانطلق به يقوده إلى النبي ﷺ وقال: يا رسول الله إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأها عَلَى غَيْرِ مَا أَقْرَأْتَنِيهَا. فَقَالَ ﷺ لعبد الله بن مسعود: كيف تقرؤها؟ فأخذ يرتجف خوفا، ظنا منه أنه قد أخطأ، فهدّأ النبي ﷺ من روعه وقال: اقرأ. فَقَرَأَ. فقَالَ ﷺ. هَكَذَا أُنْزِلَتْ. ثُمَّ قَالَ لِي اقْرَأْ، فَقَرَأْتُ، فَقَالَ: هَكَذَا أُنْزِلَتْ. إِنَّ الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فلا تختصموا على هذه الأمور البسيطة.

وليس سبب هذا الفرق إلا أن النبي ﷺ فكر أن عبد الله بن مسعود راعٍ، ولهجته مختلفة عن لهجة أهل الحضر، فعلّمه قراءةً تتفق مع لهجته، وأما عمر فهو من الحضر فعلّمه السورة باللهجة المكية الأصلية التي نزل بها القرآن.

هذه هي الفروق البسيطة التي ظهرت بسبب القراءات، ولكن هذا لم يغير من فحوى القرآن شيئًا، وكل عاقل يدرك أن هذا نتيجة حتمية للتمدن والتعليم وفروق اللهجات.

وذات مرة كنت في كراتشي، فجاءني وكيل شركة بأحد التجار من أصحاب الملايين، وكان الوكيل من أهل الحضر والتاجر من البدو، فبدأ التاجر حديثه معي بقوله: لعلك تعرف هذا الأمر، واستخدم لذلك كلمة (تُـم نُوں)، وأهل الحضر لا يخاطبون الشخص الكبير بكلمة (تُم)، بل يقولون (آپْ)، ثم إن كلمة (نُوں) معيبة جدًّا في الأردية، فلا يقال (تُم نوں)، بل (تُم كو). وعندما أخذ التاجر يخاطبني بهذه الكلمة مرارا وجدتُ وكيله يتململ في كرسيه قلقًا وينظر إليّ ليرى تأثير هذه الكلمة عليّ، أما أنا فكنتُ أستمتع بكلماتِ التاجر وقلقِ الوكيل.

والحق أنه ليس هنالك أدنى فرق بين (تُم نوں) و (آپْ كو) في الأردية من حيث المعنى، ولكن يصعب جدًّا على شخص من أهل الحضر أن يستعمل كلمة (تُم نوں)، كما يصعب جدًّا على أهل القرى من منطقة "أنباله" أو"بتياله" مثلاً أن يقول (آپْ كو). وفي ولايتنا "البنجاب" يستخدم أهل منطقة "غجرات" كلمة "پھدْنا"، وفي

منطقتنا يقال "پھڑنا"، ولو حاولنا أن نقول "پھدنا" لتصبَّبْنا عرقًا، ولو قلتَ لشخص من "غجرات" أن يقول "پھڑنا" لخنقتَه.

ومثال آخر لذلك أن أهل منطقة "غورْداسْبور" يسمون الشرير "شُهْدا"، أما أهل منطقة "سرْجودا" فيطلقون هذه الكلمة على إنسان شريف نبيل. وذات مرة جاءت إحدى قريبات الخليفة الأول ﷺ إلى قاديان وقالت عنه أثناء حديثها بين النساء: إنه "شُهْدا".. أي أنه إنسان شريف ولا علاقة له بالأشياء الشريرة. فأردن أن يمنعنها من استعمال هذه الكلمة في حقه ﷺ ولكن الحياء منعهن، وبعد قليل أعادت نفس الكلمة في حقه ﷺ، فكادت النساء يأخذن بتلابيبها وقلن لها: ألا تستحين من سب هذا الإنسان الشريف؟ فقالت في حيرة: متى شتمتُه؟ إنما أُثني عليه، أليس هو "شُهْدا"؟ فتقدّمت سيدة كانت تعرف الفرق بين لهجتي المنطقتين وهدّأتْ زميلاتها.

فلو ألّف المرء اليوم كتابًا لأهل البنجاب كلها واستعمل فيه كلمة "شُهْدا" بحق بعض الصلحاء، ألا ترى أن عليه أن يوضّح هذه الكلمة أو يستبدلها بكلمة أخرى لأهل المناطق البنجابية الأخرى؟ هذه الحاجة نفسها قد اقتضت في ذلك الزمن قراءاتٍ قرآنية مختلفة، ولكن لما تغيرت حالة القبائل نتيجة التمدن والحُكم، وصار العرب كلهم أمة واحدة، وتوحدت لغتهم حيث فهموا القراءة الحجازية تمامًا ارتأى سيدنا عثمان ﷺ -وكان مصيبا في رأيه كل الصواب- أن السماح بالقراءات المختلفة سيؤدي إلى الاختلاف، فألغى استعمال هذه القراءات استعمالا عاما ولم ير بأسًا في بقائها محفوظةً في الكتب. فبِنيَّةٍ حسنة منع عثمان ﷺ من استخدام القراءات المختلفة، وجمعًا للعرب والعجم على قراءة واحدة، أجاز تداوُلَ المصاحف المطابقة للقراءة الأصلية الأولى للقرآن أعني القراءة الحجازية.

وقصة ابن أم عبد وأبي الدرداء التي ذكرتها قبل قليل بشأن قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ هي أيضا من قبيل هذا الاختلاف في القراءات، ذلك أن (ما) في العربية تكون نافية أو مصدرية أو بمعنى (مَن). وإذا أُريد بيان معنى المصدرية ومعنى

(مَن) فلا ينفع استعمال (مَن) أو المصدر، لأن المصدر سيعطي معنًى واحدا فقط، وكذلك (مَن) ستعطي معنى واحدا فقط، لا المعنيين في وقت واحد. وهناك أماكن كثيرة في القرآن الكريم حيث أريد المعنيان: المصدر و (مَن)، ويستعمل القرآن في هذه الأماكن (ما) لأداء المفهومين. ولكن بعض القبائل العربية تستعمل (ما) بمعنى المصدر ولا تستعملها بمعنى (مَن)، فكانوا يعانون مِن فهم (ما) التي تكون بالمعنيين. ودفعًا لهذه المشكلة سُمح لهم بقراءة (والذكر والأنثى). وهذه الجملة تؤدي مفهوم (ما) إلى حد ما، ولكن ليس بصورة كاملة، فلذلك سمح لهم بها كقراءة مؤقتة، بدون أن تسجل هكذا في المصحف.

ومن الممكن أيضا أن يكون أبو الدرداء قد وقع في خطأ. وما دام يقول إن الصحابة يضغطون عليه أن يقرأ ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فهذا يعني أنه نسي حتمًا.. وإلا لما ضغطت عليه أكثرية الصحابة قائلين إن القراءة الأصلية هي ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ وليس (والذَّكَرِ وَالأُنْثَى). وعليه فأولاً ليس ضروريا أن نعتبر هذه الجملة قراءة أخرى بل نعتبرها خطأ من أبي الدرداء، خاصة وأن الصحابة لا يروها قراءة، ولكن لو سلّمنا أنها قراءة أخرى، فهذا لا يغير معنى الآية أيضا كما قلتُ، واختلاف القراءات ليس دليلا على عيب في القرآن الكريم، بل دليل على سعة معانيه.

في الزمن القريب، زعم أحد الإنجليز –وكان بروفيسورا في دير في حلب–أنه اكتشف ثلاث نسخ قديمة للقرآن الكريم، وقد نشر ما فيها من اختلاف باسم (LEAVES FROM THREE ANCIENT QURANS).. أي أوراق من ثلاثة مصاحف قديمة. فأثار كتابه ضجة بين الناس، وظنّ المسيحيون أن دعوى القرآن بحفظه قد بطلت. فطلبتُ ذلك الكتاب لأرى الأدلة التي حاول أن يثبت بها أن القرآن غير محفوظ، فلما قرأته علمتُ أن النُّسخ التي قدّمها يوجد فيها اختلاف من قبيل ورود (ما) مكان (مَن)، وسقوط ألف من كلمة (قالوا) في بعض الأماكن، أو ورود ضمير الغائب المفرد مكان ضمير الجمع، مما يبين جليًّا أن هذا الاختلاف في النسخ إما أنه راجع إلى اختلاف القراءات أو أخطاء مطبعية.. فاستنتجتُ بقراءة

هذا الكتاب أن هذه النسخ القديمة إذا كانت صحيحة فإنها تؤكد حفظ القرآن الكريم حتمًا، لأن عباراتها لا تؤدي إلى أي فرق في معاني الآيات القرآنية مطلقًا. كل ما في الأمر أنه قد ورد في بعض الأماكن (ما) مكان (مَن) و(هو) مكان (هم)، مما يؤكد أنه مجرد اختلاف في القراءات فحسب.

باختصار، لا نجد حتى في مكتبات المسيحيين كتابًا يثبت أي فرق عن المصحف الحالي إلا بقدر ما أشرت إليه آنفًا.

لقد أشار المسيح الموعود عليه السلام إلى هذا الفرق في القراءات في بعض الأماكن، فمثلا قال في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾(النساء:١٦٠) أن هناك قراءة ﴿قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ وهي تؤيد موقفه حول وفاة المسيح عليه السلام (الحق –المباحثة في دهلي– الخزائن الروحانية المجلد ٤ ص ١٦٢). فالاختلاف في القراءات كان إما تفاديًا لضرر الاختلاف الموجود بين لهجات القبائل المختلفة، أو توسيعًا لمعاني القرآن الكريم.

بعد بيان الحكمة في اختلاف القراءات أتوجه الآن إلى تفسير هذه الآية.

لقد بين الله تعالى فيها أن أعمال الناس بالليل تختلف عما هي عليه بالنهار؛ فبالليل يستعدون للنوم، وبالنهار يستعدون للعمل، وباختلاف الأوقات تختلف أعمال الشخص الواحد نفسه، فإذا كان المرء يجري ويجتهد في عمله نهارًا فإنه يغطّ في سريره ليلاً؛ وإذا بهرك نشاطه وذكاؤه بالنهار فسيذهلك نومه وغفلته بالليل. ثم نظرًا إلى اختلاف الطبائع نجد بين شخص وآخر اختلافا كاختلاف السماء والأرض؛ فبعضهم نيام في حالة اليقظة، وبعضهم أيقاظ وهم رقود. وقد وردت في ديوان "الحماسة" واقعة لِفتى اشتهر بلقب: تأبَّطَ شرًّا –أي أنه يمشي بين الناس حاملا الشرّ تحت إبطه– فهذا الفتى قد توفي أبوه تاركًا وراءه أموالا وعقارا، فتزوجتْ أمه شخصا آخر، فأراد زوج أمه قتله طمعًا في ماله، فقرر قتله وهو نائم، فخرج به متظاهرًا أنه يريد التنـــزّه معه، فلما حلّ الليل ونام الفتى هبّ الرجل من فراشه بنية قتله، ولكنه لم يمشِ خطوة من سريره حتى قام الشابّ والسيف في يده وقال: ما بك؟ فقال الرجل: ليس هناك شيء، وإنما قمتُ لحاجة. وبعد انقضاء

ساعة أو ساعتين هبّ الرجل ثانية لقتل الفتى، فاستيقظ وقال للرجل: ماذا بك؟ فقدم له عذرًا آخر. وهكذا ظلّ كل الليل يحاول أن يجد الفتى نائما ليقتله ولكنه لم يستطع ذلك، لأن الفتى كان يهبّ بسيفه فورًا ويسأله ما به. كان زوج أمه كبير السنّ وأضعف منه، فخاف أن يقتله، فرجع به في اليوم التالي موقنا أنه لن يقدر على قتله.

إذًا فبعض الناس أيقاظ في نومهم أيضًا فيهبّون على همس بسيط، بينما نجد آخرين يعيشون بالنهار نائمين وكأنهم في الليل؛ فإذا جلسوا في مجلس نعسوا وناموا، حتى إن بعضهم يخرج من المجلس ويستلقي على الأرض وينام. وهذا ما يشير الله تعالى إليه هنا حيث يبيّن أن هناك حالتين؛ حالة الليل وحالة النهار، فبالليل يُغلَب الإنسان النشيط الذكي أيضًا بالنوم، أما الآخرون فينامون نومًا عميقا فلا يفتحون عيونهم ولو أيقظتهم بهزات قوية؛ فإن كان شتاءً ما خرجوا من تحت اللحاف، وإن كان صيفًا ورشَشْت الماء على وجوههم أداروها. أما النهار فهو وقت العمل، فيقوم فيه الشخص النشيط بأنواع الأعمال لرقيه، أما الكسول فهو أيضا يضطر لفعل شيء وقت النهار وإن قضى الليل كله في النوم. والأمم أيضا نوعان: فبعضها في ليل وبعضها في نهار. والأمم التي تشبه الليل.. أو بتعبير آخر تكون في ليل: تنام ليلَ نهارَ؛ بمعنى أنهم يقضون ليلهم نيامًا، ولا يقومون في نهارهم بعمل ينفعهم وينفع أمتهم. أما الأمم التي تكون في نهار فيقضون نهارهم في أعمال، كما لا تنقضي لياليهم بدون فائدة، بل ينجزون في أوقات الظلمات والمصائب من الأعمال ما لا تُنجزه الأممُ التي تظلّ في ليلها رغم طلوع نهارها.. أعني رغم تيسُّر الأسباب والمرافق لها. هذا يشير الله إليه بقوله ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾.. أي أننا نقدّم الليل شهادةً حين يغشى.. أي يغطي قُوى الناس، وحين ينام الجميع ويسود السكون مكان الحركة.. أي لا يحل الظلام بالليل فحسب، بل يغطي الليل كل شيء بالفعل. فمثلاً إذا سافرتَ ليلاً فسوف تقطع مسافة أقل، ذلك أنك تتقدم بحذر بسبب الظلام، فلو سافرتَ بالسيارة فستقودها بنصف السرعة تقريبا في الليل مخافة أن تدوس أحدًا أو تصاب بحادث بسبب الظلام. أما لو نام السائق نفسه

لازداد الخطر أكثر. فثبت أن الليل لا يأتي بالظلام فقط، بل يغطي كل شيء عمليا.. أي لا ينام جسم المرء فقط، بل يتحكم الليل بعقله وفكره في حالة نومه، فلا يستطيع التمييز بين ما هو خير له وما هو شر له.

وجدير بالذكر هنا أن الله تعالى لم يقدم هنا الليل وحده كشهادةٍ، بل قال ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾، ذلك أن الناس يظلّون مستيقظين في جزء من الليل، فالمسلمون مثلاً يصلّون المغرب بعد غروب الشمس، ثم بعدها بقليل يصلّون العشاء ويذكرون الله تعالى بعد السنن والوتر، ثم يستعدون للنوم. والمولعون بمطالعة الكتب يطالعونها بالليل ثم ينامون. أما المستهترون فيقضون أوقاتًا من الليل في المسارح والملاهي والسينما وحانات الخمر، ويلعب الأثرياء الورق والبلياردو في النوادي. فليس كل الليل للنوم، بل يظل الناس مستيقظين في جزء منه؛ ولذلك لم يستشهد الله تعالى هنا بالليل وحده، بل قال ﴿واللَّيْلِ إِذا يَغْشَى﴾.. أي نقدم أمامكم الليل شهادةً حين يغطي كل شيء بالفعل، فلا يستولي على جسد الإنسان فحسب، بل على عقله ودماغه.

ثم قال الله تعالى ﴿والنَّهارِ إذا تَجَلَّى﴾.. فأضاف هنا لفظ ﴿إذا تَجَلّى﴾ ليبين أننا نقدم أمامكم النهار شهادةً حين يشتدّ ضوءه بحيث إذا أراد أحد النوم والغفلة فلا يستطيع أيضا. ولم يقدم هنا الجزء الأول من النهار، لأن بعض الناس ينامون في الصباح، ولكن لا ينام أحد عند ارتفاع النهار. وكان مِن عادة الصوفية النوم في الصباح بعد صلاة الفجر لبعض الوقت، وكان المسيح الموعود عليه السلام يستريح بالنوم قليلا بعد صلاة الفجر. لقد ضرب الله تعالى للكفار مثال هاتين الحالتين.. أي حالة الليل حين يغطي كل شيء، وحالة النهار حين يستيقظ النيام، وقال: هذا هو الفرق بين حالتكم وحالة محمد ﷺ وأصحابه، فآثار التعب والنوم جلية من حالتكم. والدليل على ذلك أن العرب لم يحرزوا أي تقدم ملحوظ، وما أحرزوه أدّى إلى تعبهم. كان جوار مكة وسدانة الكعبة أكبر شرف عندهم، ولكنهم أصبحوا كسدنة المعابد الهندوسية حيث فقدوا قوة العمل، وزادتهم أعمالهم رهقًا، ولذلك يقول الله تعالى إن قواكم وكفاءاتكم في تعب ونوم. تريدون أن تناموا أكثر فأكثر

لطول جهالتكم وتَرَفِكم، أما محمد ﷺ ومَن معه فهم في حالة يقظة وصحوة ويتمتعون بقوة عمل. إنهم يريدون أن يَصْحوا ويعملوا، أما أنتم فتريدون أن تناموا وتغفلوا، فأين أنتم منهم؟ وشتان بين النائم واليقظان! إن حالتكم تدل أنكم في حالة نوم الليل، وحالتهم تدل أنهم في يقظة النهار، ولياليهم كالنهار، ونهاركم كالليل، فكيف تواجهونهم؟ فلن تنعموا بالراحة أبدا ما لم تخرجوا من ليلكم وتدخلوا في النهار مثلهم.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ فيعني أننا نقدّم شهادةً الله الذي خلق الذكر والأنثى اللذيْن يستمر بهما النسل. بمعنى أنه كما يوجد في الدنيا أُناس هم في حالة النهار الدائم، وأناس هم في حالة الليل الدائم، كذلك يوجد أناس هم كالرجال، وأناس كالنساء.. أي هناك قوم ينفعون الآخرين بفيوضهم، وقوم ينتفعون بفيوض الآخرين. فالذين عندهم قوة الإفاضة هم بمثابة الذكر، والذين عندهم قوة الاستفاضة هم بمثابة الأنثى، أما الذين يفتقرون إلى قوة الإفاضة أو الاستفاضة فهم كالخنثى، فلا يقدرون على إحداث ثورة في العالم. فنقدِّم خلْق الذكر والأنثى أيضا شهادةً.. لأن الذَكر فيه قوة الإفاضة حيث يعطي الولد للأنثى، وأما الأنثى ففيها قوة الاستفاضة حيث تتلقى الولد من الذَكر وتربّيه؛ وهاتان هما القوتان اللتان يؤدي التقاؤهما إلى النتائج الهامة، إذ لو لم يلتقِ الذكر بالأنثى لانقطع النسل الإنساني كلية.

قد اعترض البعض هنا على قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى﴾ وقال لقد ذكر القرآن هنا خلق الذكر والأنثى ولكنه لم يذكر خلْق الخنثى! لقد أخذتني الحيرة بقراءة هذا الاعتراض في الكتب، ثم ازدادت حيرتي حين وجدتُ المفسرين قد حاولوا الرد عليه وقالوا إن ما هو خنثى عندنا هو ذكر أو أنثى عند الله حتمًا. (فتح البيان)

لا شك أن هذا الجواب اضطراري، وإلا فإن الواقع أن ولادة الخنثى ليس خَلْقًا، وإنما هو تشوُّهٌ للخَلْق، ومثاله أن تصنع مشروبا فيبول ولدك الواقف بجنبه فتسقط قطرة من بوله في المشروب.. فلن نسمي ذلك مشروبا إذ صار نجاسة.

فهل هناك عاقل في الدنيا يقول إن هناك مشروبا ممزوجا بالعطر ومشروبا ممزوجا بالبول؟ كذلك قد خلق الله تعالى كل إنسان ذكرًا أو أنثى، وولادةُ خنثى بخطأ من الوالدين أو لفساد صحتهما لا يُسمّى خَلْقًا، بل هو تشوُّهٌ خَلْقيٌّ ظهر بهذا الشكل. إن مَثَل اعتبار الخنثى خَلْقًا كمثل أن يقول المرء إن الله تعالى يخلق العيون، فيقول له شخص: لكن يوجد هناك عميان أيضًا. فلا شك أن الجميع يعتبر قوله كلامًا فارغا، لأن ولادة البعض أعمى إنما هو نتيجة جهالة الوالدين أو غفلتهما أو مرضهما. إن الله تعالى يخلق الجميع بعينين، أما ولادة أعمى فهو تشوّهٌ وفساد خَلْقي وليس خَلْقا من نوع آخر. وكما قلت فإني في حيرة من خوض المفسرين في هذا البحث وتبريرهم لماذا ذكر الله خلق الذكر والأنثى ولم يذكر خلق الخنثى!

إن ولادة الخنثى تماثل ولادة البعض من دون أنف أو عين أو رجل أو يدٍ أو لسان أو زيادة الأصابع أو نقصها، وواضح أن كل هذه الولادات هي من قبيل التشوّه الخَلقيّ وليست أنواعا جديدة من الخَلْق، وإلا ستبلغ أنواع الخلْق آلافًا. لقد جعل الله لكل إنسان رِجْلين، ولكن يولد بعض المواليد بثلاثة أرجل نتيجة عدم حيطة الوالدين أو فساد في رحم الأم. كذلك قد جعل الله تعالى لكل إنسان جسما منفصلا، ولكن قد يولد التوءمان ملتصقين، فيُفصلان بعملية جراحية، وأحيانًا يستحيل فصلهما بالجراحة إذ يكون الجسمان منفصلين في الظاهر ولكن يشتركان بقلب واحد أو كبد واحد أو طحال واحد أو معدة واحدة، فيعيشان ملتصقين طول العمر. فإذا كان قولهم صحيحًا فيجب ألا يقدموا الخنثى وحده كخلْق جديد، بل يقدموا كل هذه الأمثلة من قبيل التشوّه الخَلقي أيضًا، فيقولوا إن من أنواع الخلق ولادة توءمين ملتصقين لهما كبد واحد وقلب واحد ورئة واحدة ومعدة واحدة، ومن أنواع الخلق المولودُ من دون عينين أو المولودُ بثلاثة أرجل وما إلى ذلك. الواقع أن هذه كلها أمثلة للتشوه الخَلْقي، ومن يعترض على القرآن بتقديم هذه الأمثلة ويقول لماذا ذكر الله تعالى خلْق الذكر والأنثى ولم يذكر الخنثى، فإنما يدلّ على حمقه وغبائه. وكان على المفسرين أن يرفضوا هذا الاعتراض باعتباره

دليلاً على حماقة صاحبه بدلاً من أن يأخذوا في الرد عليه، لأن هناك نوعين من الخلْق فقط؛ الذكر والأنثى، والتقاؤهما يؤدي إلى الإنجاب، وبدونه لا يولد شيء.

وإلى سلسلة الخَلْق هذه يشير الله تعالى في هذه الآية ويقول إذا تدبرتم في العالم تبين لكم أن النسل يستمر بالتقاء الذكر بالأنثى، حيث يوجد في أحدهما قوة الإفاضة وفي الآخر قوة الاستفاضة؛ والتقاؤهما يُنتج، أما إذا لم يلتقيا فلا نتاج. فلو قال الذي ليس فيه قوة الإفاضة إنه ليس بي حاجة إلى الاستفاضة من غيري فهو جاهل، كذلك لا يمكن لمن ليس فيه قوة الاستفاضة أن يُظهر قوة إفاضته من دون الالتقاء بغيره. إن قوتَي الإفاضة والاستفاضة متلازمتان، فإذا قال أفراد أمّةٍ ليست عندهم قوة الإفاضة إنهم قادرون على القيام بأعمالهم دونما إرشاد أو مساعدة من أحد، وأنهم ليسوا بحاجة إلى قوة من غيرهم، بل في سواعدهم من القوة ما يستطيعون به خوض سباق الرقيّ، فلا شك أن دعاويهم كلها فارغة. ما داموا يفتقرون إلى قوة الإفاضة فكيف يتقدمون بدون مساعدة هادٍ؟ إنهم لن يتقدموا إلا إذا كان عندهم قوة الاستفاضة.. أي القدرة على الانتفاع من فيوض غيرهم، لأن مَثَلَهم مَثَلُ العاكس، والعاكس ليس الضوء، وإنما هو مرآة عاكسة للضوء، فإذا لم يعكسوا الضوء الأصلي عبر مرآة طاعتهم لصاحب الضوء، فلا نصيب لهم إلا الظلام والضلال.

باختصار، فكما أن النسل لا يستمر بدون اتصال الذكر بالأنثى، كذلك لا تزدهر أمة إلا إذا وُجد بينهم هادٍ يتمتع بقوة الإفاضة، وكان أفرادها يتمتعون بقوة الاستفاضة. وقد ضرب الله هذا المثال للكفار ليبين لهم أنْ لا قِبَلَ لهم بالمسلمين لأن اتصال محمد وأصحابه سوف يسفر عن ثورة عظيمة في الدنيا، فإنه يتمتع بقوة الإفاضة إلى حدّ الكمال، وأصحابه يتمتعون بقوة الاستفاضة بشكل تام، والتقاؤه بهم سوف ينتج نسلا جديدا. فكما أن التقاء الزوجين يسفر عن ولادة مولود، كذلك سيؤدي الاتصال الروحاني بين الرسول وصحابته إلى عمران جديد. أما أنتم يا أهل مكة فلا تتمتعون بقوة الذَكر ولا بقوة الأنثى. ستموتون في هذا السبات، وتُهلِككم غفلتكم، لأنكم لستم بمثابة ذكر، كما لا تحاولون أن تتمتعوا

بقوة الأنثى، بل تريدون أن تصبحوا كالخنثى، فكيف تتوقعون لكم خيرًا أو مصيرًا حسنًا؟

يقول المعترض أن القرآن لم يذكر الخنثى هنا! أفلا يرى كيف تتحدث هذه الآيات عن الخنثى، إذ تعلن أن محمدا ﷺ يتمتع بقوة الإفاضة الكاملة وصحابته الكرام يتمتعون بقوة الاستفاضة الكاملة، أما أنتم يا أهل مكة فتعوزكم قوة الإفاضة وكذلك الاستفاضة، فأنتم خُناثى من الناحية الروحانية، ولستم من الذكور ولا من الإناث؛ إذ لا تتمتعون بقوة الذكور حتى تنيروا الآخرين، ولا بقوة الإناث حتى تقتبسوا النور من محمد ﷺ، فأنى لكم أن تزدهروا في الدنيا؟ إنكم الخناثى، ولا نسل للخنثى. فثبت أن محمدا ﷺ هو الآدم الكامل في العالم الروحاني، وصحابته الكرام هم الحواءات الكاملات، وكفار مكة هم الخناثى.

إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

شتى: يقال أشياء شتى: أي مختلفة. (الأقرب)

التفسير: يقول الله تعالى للكافرين هناك بون شاسع بين سعيكم وسعي المسلمين. فسعيكم مرتكز على الخلود إلى النوم، وسعيهم مرتكز على الصحوة والتقدم. إن سعيكم هو في سبيل الشيطان رئيسِ الظلام، أما سعيهم فهو في سبيل الله الذي هو نورٌ بنفسه وخالق النور أيضا، فكيف تستوي نتائج مساعي الطرفين؟ تنصبّ مساعيكم على إعداد الفراش وتسوية الوسادة واللحاف من أجل الإخلاد إلى النوم، أما الصحابة فسعيهم لحرث الأرض وبذر البذور وسقي الزروع ورعايتها، لكي تدرّ بأكبر محصول، وليس صعبًا أن تعرفوا بأنفسكم ما إذا كان النيام يكسبون شيئا أم اليقِظون! أنتم في ليل وهم في نهار، وما دامت مساعي الفريقين مختلفة تماما، فكيف تكون نتائجها متشابهة؟ وكيف تظنون أن مصير النائمين في ليلهم ومصير المجتهدين بالحراثة والسقي في نهارهم مصير واحد؟

ويمكن تفسير الآية بمفهوم آخر، وهو أنكم خناثى تفرّون من الذكر، ولكن صحابته ﷺ كالإناث ولا يفرّون منه، بل يحاولون الاتصال به، فأنى يكون لكم أولاد روحانيون؟ إنما يكون الأولاد للعروس التي تذهب إلى العريس، أما التي تفرّ منه فلا تلد شيئًا. هذا هو مثال محمد ﷺ وقومه. إن أصحابه ﷺ يدركون أنهم لا يتمتعون بقوة الإفاضة أي قوة الرجولية، بل يتمتعون بقوة الاستفاضة، ولذلك يتوجهون إلى عريسهم الروحاني، أما أنتم أيها الكافرون، فليس عندكم قوة الإفاضة والإنتاج، وإنما عندكم الاستفاضة، ولكنكم لسوء أعمالكم مصابون بمرض، حيث لا تعرفون عريسكم وتفرون منه. فمَثَلُكُم كمَثَل الليل، ومَثَلُ صحابته ﷺ كمثل النهار. إنهم كأنثى تذهب إلى عريسها، وأنتم كخنثى يفر منه، فكيف تزدهرون مع هذا البون الشاسع بينكم وبينهم؟ وكيف تتوقعون أن يتولد عندكم نور السماء وتنالوا العزة في الدنيا؟ كلا، إنما هم الذين سيحملون الثمار الروحانية دونكم. إنما تعمر الدنيا الآن بواسطة هؤلاء العرائس اللواتي يتوجهن إلى العريس، وليس من اللواتي يكرهن الاقتراب منه. فلا تظنوا أنه سيكون لكم نصيب في رقي العالم، كلا، بل إن عمرانها سيكون بواسطة المسلمين، ولن تزدهر إلا أُمّةٌ قد طلع النهار عليها وقدّمت التضحيات ولا تزال تُقدِّمُها، أما الذين يؤثرون الراحة والكسل فلا نصيب لهم من هذه النعم.

وفي الآيات التالية ضرب الله تعالى مثالا بين به الفرق بين الظلام والنور، وبَيْن الأمة التي تتمتع بقوة الأنوثة الكاملة والأمة العاقر.

فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٦﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٧﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾

شرح الكلمات:

فَسَنُيَسِّرُهُ: يسَّر الشيءَ لفلان: سهَّله له. (الأقرب)

التفسير: أي أن مثل الأُمّة التي هي في نهار وتتمتع بالأنوثة الكاملة كَمَثَلِ شخص أعطى واتقى وصدّق بالحسنى. لقد بين الله بذلك موضوعا غاية في الدقة واللطافة، لأن قوله تعالى ﴿أَعْطَى﴾ يشير إلى صحة العمل، وقوله ﴿واتَّقى﴾ يشير إلى صحة العواطف والمشاعر، وقوله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى﴾ يشير إلى صحة التصديق، الذي هو وثيق الصلة بالفكر. وبتعبير آخر لا بد للأمة التي تريد التقدم والازدهار من صحة العمل وصحة المشاعر وصحة التفكير، ذلك أن ﴿أعطى﴾ يعني آتى.. وهذا يشير إلى قيامه بعمل صحيح، وأما ﴿واتقى﴾ فيعني أنه خاف وتجنب كل سوء، وهذا يشير إلى سلامة المشاعر، وأما ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنى﴾ فيعني أنه صدّق الأمور الحسنة، وهذا يشير إلى صحة الأفكار. وهكذا نبّه الله تعالى إلى ثلاثة إصلاحات لا بد منها لتكميل الإنسان.

الواقع أن هذه الكلمات الوجيزة تتناول أمرًا هامًّا من علم النفس، وتبيّن أن الإنسان إنما ينصلح تماما بالعمل الصحيح والإحساس الصحيح والفكر الصحيح، وما لم تتحلَّ أُمة بهذه المحاسن الثلاثة فتقدُّمُها مستحيل. إن العلم الكامل يُصلِح الأفكار، والإحساس الكامل يصلح المشاعر، والعمل الكامل يصلح السلوك، وهذه هي الأمور الثلاثة التي تضمن النجاح. أما إذا لم يتيسر للمرء العلم الصحيح، فلا بد أن تفسد مشاعره، فيفسد عمله أيضًا. فالملح المطحون والسكر مثلاً متماثلان شكلاً، ولو قدّمتَ لأحد السكرَ فوضعه في الطبيخ ظنًّا منه أنه ملح، فهذا العلم غير الصحيح سيؤدي إلى فساد الطبيخ، إذ لا يمكن أن يتحول السكر ملحا لمجرد أنه وضعه في الطبيخ باعتباره ملحًا. كلا، بل إن العلم الخاطئ يؤدي إلى العمل الخاطئ والمشاعر الخاطئة حتمًا. أو مثلاً إذا كان في البيت دواء للعين أو زيت للتدليك، فسقت الأُمّ ولدها منه جهلاً، فسيموت الولد حتمًا، ومن المحال ألا يأتي علمها الخاطئ بنتيجة خاطئة. فثبت أن العلم الخاطئ يؤدي إلى المشاعر الخاطئة والعمل الخاطئ.

أو مثلاً يفقد أبٌ ابنه، ولا يجده رغم البحث الكثير، فيكبر الابن في مدينة أخرى، ويبدأ عمله، وبعد انقضاء سنوات طويلة ينسى صورة والده، ولنفترضْ أن أباه الفقير يذهب إلى المدينة التي فيها ابنه ويعمل هناك للناس بالأجرة، ويكون ابنه في سفر أو يريد نقل الأثاث من بيت إلى آخر، أو نقل بضائع كثيرة اشتراها من السوق، فيبحث عن أجير فيقع نظره على والده و لم يعرفه، فهل تظن أن قلب الابن سيرقّ لوالده حبًّا له وحنينًا إليه؟ كلا، بل إنه سينظر إلى والده نظرته إلى أي أجير بسبب علمه الخاطئ، وسيقول له بدون تردد: تعال أيها العجوز واحملْ أمتعتي إلى بيتي مقابل كذا من المال. فمع أن الفتى ابنُ العجوز إلا أنه لا يعلم ذلك بل يظنه أحد الأجراء، فلذلك لا يتولد في قلبه أي مشاعر حب وشفقة على والده، فيعامله معاملة الأجير؛ فثبت أن العلم الخاطئ يخلق مشاعر خاطئة دائمًا، والمشاعر الخاطئة تؤدي دائما إلى عمل خاطئ. إن العلم محرك للمشاعر، والمشاعر محركة للعمل، ولا يتأتى العمل الصحيح إلا بالمشاعر الصحيحة السامية، ولا تتولد المشاعر السامية إلا بالعلم الصحيح. انظروا إلى حب الأم كيف تتفانى في العناية بولدها، وعندي أن الخادم لو زيدتْ أجرتُه عشرين ضعفًا لما اعتنى بالولد ليلَ نهار كالوالدين اللذين يعانيان في تربية أولادهما، ذلك أن الخادم لا يعمل بالعاطفة، بل مدار عمله الفكر فقط بدون المشاعر. فثبت أن العمل الصحيح بحاجة إلى المشاعر الصحيحة، والمشاعر الصحيحة بحاجة إلى العلم الصحيح، وإذا اجتمعت هذه الثلاث في قوم أو فرد أصبح كاملا.

لقد أشار الله تعالى هنا بقوله ﴿أَعْطَى﴾ إلى صحة الأعمال، وبيّن أن الإنسان المشار إليه لا يجمع الأموال، وأشار بقوله تعالى ﴿اتقى﴾ إلى صحة المشاعر، وبيّن أنه يتجنب السيئات. وكان الله تعالى قد ذكر في السور السابقة أن من عادة الكفار أنهم لا ينفقون أموالهم في مصالح الأمة، بل يهدرونها في اللهو واللغو، حيث قيل بلسان الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا﴾(البلد:٧).. أي قد أنفقتُ قناطير مقنطرة من المال، ففنَّد الله زعم الكافر وبيّن له أنك قد أنفقت مالاً كثيرا بالفعل، ولكن ليس لمصلحة الأمة ولا لمساعدة اليتامى والمساكين ولا للنهوض بالفقراء والمحتاجين، وإنما

رياءً وتفاخرًا بين الناس؛ فإنفاقُك مضيعةٌ للمال؛ إذْ كان إنفاقًا خاطئا. وكذلك قال الله تعالى للكافرين ﴿ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا﴾(الفجر:٢٠).. أي تدمّرون ما ترك لكم آباؤكم من مال وعقار. باختصار، قد بين الله في السور السابقة أن الكافرين ينفقون أموالهم، ولكن بطرق خاطئة، إذ يضيعون أموالهم بالبذخ والإسراف، ويمسكونها عندما يكون الإنفاق لزامًا. أما في هذه السورة فوصف الله المؤمن فقال ﴿أَعْطَى﴾.. أي أنه يهتم بحاجات الأمة ويستعد دومًا للتضحية بماله كلما تطلب الأمر.

وجدير بالتنبه أن الله تعالى لم يقل هنا: أعطى المال، بل قال ﴿أعطى﴾ فقط. ذلك لأن من مزايا اللغة العربية دون غيرها من اللغات كلها توسيع المعاني بحذف المفعول أو المضاف، فلو قيل هنا (أعطى المال) لانحصر المعنى في إنفاق المال، ولكنه تعالى قال ﴿أعطى﴾، بمعنى أنه أعطى المال أو العلم وما إلى ذلك مما يمكن أن يُعطى. ويماثله قوله تعالى ﴿ومما رَزَقْناهُم يُنْفِقُون﴾(البقرة:٤).. أي أنهم ينفقون نصيبا مما أعطيناهم لخير بني جنسهم ومصلحتهم. فأطلق الرزق هنا لتوسيع المعاني.. أي إذا كان عندهم مال أنفقوا المال، وإذا كان عندهم علم أنفقوا العلم، وإذا كان عندهم وقت أنفقوا الوقت. فهم ينفقون لخير الناس من كل ما أعطاهم الله. وهنا أيضا قال الله تعالى ﴿أَعْطَى﴾ فلم يحدد ما ينفقه هذا المؤمن ليبين ﷻ أنه ينفق لنفع بني جنسه من كل ما أعطاه الله تعالى من نِعَم وخيرات، فإذا منحه الله القوة أنفق من قوته، وإذا منحه الوقت أنفق من وقته، وإذا منحه المال أنفق منه، وإذا وهبه كفاءات عالية أنفق منها.

ثم قال الله تعالى ﴿واتقى﴾، أي أن هذا المؤمن يقوم بكل عمل بالتقوى، فيخاف دائما أن يقع بالخطأ فيما يضر به الناس بدلاً من أن ينفعهم؛ فمثلا لو أعطى غيره مالاً كثيرًا فأتلفه منغمسًا في الملاهي والملذات، فعطاؤه هذا غير سليم مطلقا، كذلك لو ساعد الظالم فازداد ظلمًا فليس عطاؤه في محله، ولذلك أردف الله قوله ﴿أعطى﴾ بقوله ﴿واتقى﴾، ليبين أن هذا المؤمن يعطي ما يعطي وهو خائف أن يقع

في خطأ يضر الإنسانيةَ في مجال العِلم أو العَمل أو السياسة أو الاجتماع وما إلى ذلك، فيجلب غضب الله تعالى بدلاً من الثواب.

أما قوله تعالى ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ فأوضح فيه أن المؤمن لا يكتفي بهذا فحسب، بل يظل في إصلاح أفكاره ساعيًا إلى اعتناق أصح العقائد. علمًا أن "الحسنى" لا يعني الشيء الجيد فحسب، بل يعني الأجود والأفضل، فكأنما يخبر الله تعالى بقوله ﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾ أن المؤمن يصدّق بأفضل الأمور وأحسنها.. أي يبلغ في العلم الذروة.

هنا ينشأ سؤال: لقد بينتُ من قبل أن العلم محرك للمشاعر، والمشاعر دافعة للعمل، ولكن الله تعالى قد ذكر هنا العمل أولاً ثم المشاعر ثم الفكر، فكأنه قلب الترتيب تمامًا، فما السبب؟

الجواب أن الله تعالى قد عكس الترتيب تبيانًا لأهمية هذه الأمور، لأن التركيز هنا على المقارنة بين المؤمنين والكفار، والعمل هو الأكثر أهمية عند المقارنة بين طائفتين، ولذلك ذكر الله تعالى العمل أولاً ثم الدافع إليه ثم دافع الدافع إليه. والواقع أنه من حيث الظهور يكون العلم في المقام الأول ثم المشاعر ثم العمل، أما عند المقارنة بين فريقين فلا يرى الناس إلا العمل، بينما تظل المشاعر والعلم في الخفاء؛ وحيث إن الله تعالى يقارن هنا بين الكفار والمسلمين ويقول للكفار إن ادعاءكم بالانتصار على المسلمين لغو، لأنكم تفتقرون إلى المزايا والمحاسن التي يتحلى بها المسلمون، فانتصارهم حتمي، وليس لكم غير الفشل؛ ولذلك ذكر الله تعالى العمل أولاً. ولو ذُكرت مشاعر المسلمين وأفكارهم لما اعترف الكافرون بأهميتهما؛ فلو قيل لهم مثلا: إن صحابة محمد أكثر منكم علمًا، لقالوا هذا خطأ، بل نحن أكثر منهم علما. ولكن حين قيل لهم إن المسلمين يخدمون الفقراء ولا تنفقون على الفقراء شيئا، لم يكن عند الكفار أي جواب لذلك. باختصار، لقد ذكر الله تعالى العمل أولاً في معرض المقارنة بين الكفر والإيمان، أما في الدوافع الطبيعية فإن العلم يأتي في المقام الأول ثم المشاعر ثم العمل. إن الناس ينظرون إلى العمل قبل كل شيء عند المقارنة بين الصالح والطالح، فلذلك عكس الله الترتيب الطبيعي، فذكر العمل أولاً ثم المشاعر ثم

الأفكار، لأن ذِكر العمل سيساعد الكفار على المقارنة بينهم وبين المسلمين، ويبكِّتهم، أما المشاعر والعلم فيمكن أن يقدموا بصددها ألف شبهة.

ثم يقول الله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾.. أي أن الذي يتصف بهذه الصفات سنهيئ له اليسرى حتمًا. ولهذه العبارة مفهومان: أولهما أننا سنهيئ له من الظروف والأسباب ما يسهّل عليه الانتصار والغلبة؛ ذلك أن تيسير اليسرى إنما يعني أن تأتي نتائج أفعال المرء على حسب رغبته، وإذا تيسرت الأسباب لأحدٍ كما أراد فقد تيسرت له اليسرى. فالمفهوم الأول لقوله تعالى ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ أننا سنجعل له سهولة في كل أمر.

والمفهوم الثاني هو أننا سوف نسهّل عليه العمل الحسن بالتدريج. الواقع أن العمل الصالح يشقّ في بدايته على المرء جدا، فمثلا إذا قيل له أن يصلح أعماله أو مشاعره وأفكاره فسيصاب بالقلق ويعتبره عملاً مستحيلاً، ولذلك يوضّح الله هنا أن الإنسان إذا ما سار على هذا الطريق وبدأ هذه الأعمال بعزيمة، فمن سُنّتنا أن نسهّل عليه إنجازها، فلن تشقّ عليه بل سيقوم بها ببشاشة وبهجة. فمثلاً حين يُؤمَر المرء بأداء الصلاة أول مرة يجدها عملا صعبا جدا، ولكنه يعتادها بالتدريج حتى يرى ترك صلاة واحدة أسوأ من الموت. فالمرء كلما أُمِرَ بعمل صالح هام قلق باعتباره عملاً صعبا جدا، ولكن الله تعالى يقول ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى﴾. والحق أن العمل الصالح هو السهل، وأن العمل السيئَ هو الصعب، ولذلك يقول الله تعالى في سورة أخرى ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٨).. أي لقد جعلنا القرآن سهلا للهداية، فهل فيكم من يجرّب ذلك ويُرضي ربه؟ إنما اليسرى الحقيقية هي التعاليم الربانية التي تطوِّر روحَ الإنسان، ولكنها تبدو عُسْرَى في البداية فيتردد الإنسان في العمل بها خوفًا، فلذلك يعلن الله تعالى هنا أننا سنجعل الأعمال الصالحة الصعبة في الظاهر سهلةً للصحابة الكرام الذين ينتفعون بالقوة القدسية لمحمد، ونرغّبهم فيها ترغيبا. ذلك لأن الذي يلجأ إلى العلم الصحيح والمشاعر الصحيحة والعمل الصحيح تصبح رؤيته سديدة، فيجد في فعل الخيرات لذة وسرورا، بينما يجد الآخرون ذلك صعبًا جدا.

وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠

التفسير: لقد ذكر الله تعالى هنا ثلاثة أمور مقابل ثلاثة أمور ذكرها في الآيات السابقة، فقال: ﴿بَخِلَ﴾ مقابل ﴿أعطى﴾، و﴿اسْتَغْنَى﴾ مقابل ﴿اتَّقَى﴾ و ﴿كَذَّبَ بِالْحُسْنَى﴾ مقابل ﴿صَدَّقَ بِالْحُسْنَى﴾. علمًا أن المراد من ﴿اتَّقَى﴾ أنه يخاف أن يَغضب اللهُ عليه بسبب خطيئة، أما ﴿اسْتَغْنَى﴾ فيعني أنه لا يبالي بأحد، أي يقول: لا أبالي ما إذا كان الله يغضب عليّ أم لا، فحيث إن هذا الاستغناء يتنافى مع التقوى، فذكر الله ﴿اسْتَغْنَى﴾ مقابل ﴿اتَّقَى﴾.

لقد بين الله أن الشخص المذكور هنا يبخل، فقد أعطاه المال والعزة والقوة والوقت، ولكنه لا ينفق أيًّا منها في سبيله تعالى، بل يقول إني لا أكترث لأحد، فمن ذا الذي يمكن أن يضرّني؟ ولا شك أن أصحاب الطبائع الفاسدة هم من يستعلمون مثل هذه الكلمات عادة، فإذا نُهوا عن منكر قالوا: لا نبالي بأحد! فمن ذا الذي يقدر على الإضرار بنا؟ ولذلك يبين الله تعالى هنا أن من المحال أن يُكتب الرقي لمن يجمع مع بخله مثل هذا الطبع الفاسد ثم يكذّب بالحسنى، أي أنه ذو فكر مريض؟ إن هذا الاستغناء في طبيعته دليل افتقاره إلى المشاعر السليمة؛ إذ إن المشاعر الصحيحة تولّد في الإنسان الحبَّ لا الاستغناء؛ فمثلاً عندما ترى الأُم ابنها يموت فلا تقول فليمتْ فإني لا أبالي، ولكن الخادم الفاسد قد يقول مثل هذا الكلام، لأن مشاعره غير مشاعرها. فثبت أن فقدان المشاعر السويّة السليمة يؤدي إلى الاستغناء، وفقدان العمل الصحيح يؤدي إلى البخل، وفقدان الفكر السليم يؤدي إلى التكذيب. لقد أخبر الله تعالى في الآيات السابقة أن مِن الناس مَن عندهم العمل الصحيح والمشاعر الصحيحة والفكر الصحيح، وقد بيّن الآن أن هناك أُمّةً أعمالهم خاطئة ومشاعرهم خاطئة وأفكارهم خاطئة. وحيث إن الحديث في هذين المثالين هو عن المسلمين والكفار فكأنما ينبه الله تعالى الكافرين هنا بأنكم متورطون في هذه النقائص، بينما يتحلى المسلمون بمحاسن

عظمى، فكيف تستطيعون مواجهتهم؟ لا شك أننا سنهيئ لهم اليسرى نتيجة أعمالهم، أما أنتم فسنهيئ لكم العسرى بسبب أعمالكم.. أي أن أعمالكم كلها ستفسد وتخرب دائما، وكلما حاولتم إنجاز شيء ستكون نتيجته الفشل. والمعنى الثاني أن أعمالكم ستصعِّب عليكم فعل الخيرات باستمرار؛ ذلك أن العمل الصالح هو العمل الحقيقي، وكلما ابتعد عنه الإنسان صعب عليه القيام به. باختصار، يقول الله تعالى للكافرين: إن أعمالكم سوف تصعّب عليكم فعل الخيرات، وأنكم كلما هممتم بشيء انتهى إلى الفشل؛ لأن أعمالكم قد تطرق إليها الفساد وأُصبتم بالكِبْر والاستغناء مما يدل على فساد مشاعركم، ثم إنكم بعد ذلك مصابون بمرض التكذيب، وهذا دليل على فساد عقلكم وتفكيركم وفساد علمكم، وهذه الأمور كلها ستؤدي إلى هلاككم ودماركم.

وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

تَرَدَّى: تردّى في الهوّة: سقط فيها (الأقرب)

والتردّي: التعرضُ للهلاك. (المفردات)

التفسير: أي عندما يحين دمار الفئة المذكورة صفاتها أعلاه، أو عندما تسقط هي من مقامها، فلن ينفعها مالها شيئا. يمكنها أن تتفاخر طالما هي تتمتع بالعزّ والشوكة، ولكن إذا بدت آثار زوالها واقتربت ساعة هلاكها، فلن ينفعها شيء، ولو أنها قامت بأعمال حسنة فهي أيضا لن تأتي لها بنتيجة طيبة، لأن ساعة العذاب قد أَزِفتْ.

الواقع أن كل ما يملكه الإنسان من مال وثراء وعزة إنما ينفعه قبل صدور القرار الإلهي بهلاكه، أما إذا صدر القرار فلا ينفعه شيء مطلقا، فإذا أنفق ماله عندها فلن يجد النتيجة المرجوة، وإذا رحم الآخرين أتت النتائج خلاف آماله أيضًا. عندها لا تنفعه أبدًا ثروته ولا عزته ولا حلمه ولا عطفه. كان الناس يحترمونه من قبل إذا

تصدّقَ، أما الآن فإذا همَّ بإخراج صدقة قالوا: راشٍ يقدّم الرشوة، وكان الناس يثنون على أخلاقه من قبل إذا عاملهم برفق وحلم، أما الآن فإذا عاملهم برفق قالوا: مداهن يتوسل إلينا. إذن فكل أمر ينقلب عليه، ولا ينفعه شيء مطلقا. فقوله تعالى ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ يعني أنه عندما يحين هلاكه سوف يعمل بما كنا نأمره به من قبل وكان يأباه، ولكن ستكون نتائج أعماله كلها غير مرضية على الإطلاق.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٣﴾

التفسير: لا شك أن نفع الآخرين وتقوى الله وتصديق الأمور الحسنة هي مما يؤدي إلى ازدهار الأمم، وأن البخل والاستغناء وتكذيب الأمور الحقة هي مما يدفع بالأمم إلى هوة الهلاك، بيد أن الحقيقة أن الله هو الذي يهدي التائهين في ظلمات الليالي الحالكة. فقوله تعالى ﴿إِنَّ عَلَيْنا لَلْهُدى﴾ يعني أن هداية الناس من واجبنا أو من اختصاصنا نحن. بمعنى أن الشفقة والرأفة الحقيقية التي نكنّها للناس تستلزم أن تكون هدايتهم من اختصاصنا نحن، وليس من حق الناس أن يختاروا لأنفسهم ما شاءوا من الهدى، ذلك لأن الإنسان قد يتخذ لنفسه قرارا خاطئا، فالبخيل أو الظالم أو الجاهل مثلاً قد يتخذ قرارا لنفسه ولكنه يكون غير صائب، فثبت أنهم لا يمكن أن يكونوا أكثر منا نُصْحًا لأنفسهم. ولذلك فمع أن الكافرين ينكرون الحق ويعارضون المسلمين ويسبّونهم ويؤذونهم إلا أننا لا نزال نهديهم، ذلك لأننا نحن خلقنا الإنسان، ونحن الذين نشفق عليه ونرأف به ونحن الرحمن والرحيم، وندرك مدى مسؤوليتنا، ونهديه رغم كفره وإنكاره.

وَإِنَّ لَنَا لَلْأَخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٤﴾

التفسير: لقد بين الله هنا للكفار أننا نعلَم العراقيل التي تحول دون قبولكم الحق. إن أكبر هذه العقبات أنكم لا تريدون ترك الدنيا. ترون المسلمين لا يبالون بأموالهم، وينفقونها بلا هوادة عند كل ضرورة دينية أو اجتماعية، بينما تحافظون على أموالكم، ولذلك تقولون إن المسلمين مجانين وسيهلكون إذ يهدرون أموالهم، وأننا لن نهلك لأننا نحافظ على أموالنا. فاعلموا أن ظنكم هذا باطل، إذ لا تدرون أن عندنا الآخرة والدنيا. تحاولون الفوز بالدنيا، ولكنكم لن تفوزوا بالدنيا ولا الآخرة، لأن عندنا الدنيا والآخرة. أما المسلمون الذين يزهدون في الدنيا من أجلنا فنعطيهم الآخرة والدنيا أيضا. وظنكم أنهم يضرون بأنفسهم ظن خاطئ، فإنهم حين يصلون إلينا سيجدون عندنا الدنيا التي تركوها من أجلنا. وحيث إنهم سائرون إلينا كما تعرفون، فرغم أنهم قادمون إلينا طمعًا في الآخرة إلا أنهم سيفوزون بالدنيا أيضا، لأن عندنا الدنيا أيضًا؛ وحيث إنكم تريدون الدنيا معرضين عن الآخرة، فسيكون مآل جهودكم خسران الدنيا وكذلك حرمانكم من نعم الآخرة، لأنكم معرضون عنا مع أن عندنا الدنيا أيضًا. فالحق أن مَثَل الكافر كمثل شخص خرج وحده في سفر ومعه مال كثير، فرآه لصّ فأراد سلبه، وبعد تفكير طويل اهتدى اللص إلى حيلة، فألقى في طريق المسافر أحد زوجَي نَعْلٍ جديد وغالٍ ثم اختفى يتتبع المسافر، فلما وصل المسافر إلى النعل أُعجب به وأراد أن يأخذه، ثم فكر أنه لا جدوى من نعل واحد، فتركه ومضى لسبيله. وكان اللص قد ألقى زوج النعل الآخر في طريقه على مسافة، فلما وصل إليه المسافر تأسف على حمقه قائلا لقد أخطأت خطأ كبيرا حين تركتُ النعل الأول، ولو أخذته لصار عندي النعلان. فترك متاعه هنالك ورجع

ليأخذ النعل الأول، فأخذ السارق متاعه والنعل أيضا وذهب. أما المسافر فلما وصل هنالك لم يجد النعل، لأن السارق كان قد أخذه، فرجع إلى متاعه، فلا متاعًا وجد ولا نعلا.

فحيث إن الكافر يتوجه إلى الدنيا تاركًا الآخرة، فلا يجد الدنيا ولا الآخرة، لأن الدنيا عند الله تعالى. إن الكافر يسلك طريقا يؤدي به إلى الشيطان، والمؤمن يتوجه إلى الآخرة زاهدًا في الدنيا ويقول ليس لي في الدنيا رغبة، وإنما أريد الآخرة، وعندما يصل إلى الله تعالى يرى أن الدنيا قد جاءت وراءه ساعيةً وهي واقفة بجنب الآخرة. والكافر عندما يتوجه إلى الدنيا، فلا يجد هنالك الدنيا ولا الآخرة. فالله تعالى يقول هنا إن المؤمنين قد أتوْنا طالبين الآخرة، فوجدوا عندنا الدنيا أيضا.

فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٥﴾ لَا يَصْلَىٰهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٦﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

تَلَظّى: أصلُها تتلظّى. تلظّت النارُ: تلهّبتْ. (الأقرب)

التفسير: إن قوله تعالى ﴿كَذَّبَ﴾ إشارةٌ إلى ما في عقائدهم من سوء، وقوله تعالى ﴿تَوَلَّى﴾ إشارةٌ إلى ما في مشاعرهم وأعمالهم من فساد. فكأن الله تعالى يبيّن هنا أن اعتقاداتهم غير صحيحة ومشاعرهم غير سليمة وأعمالهم غير صالحة، وحيث إنهم مصابون بالفساد في فكرهم ومشاعرهم وأعمالهم فلن تحمد عقباهم.

وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٨﴾

التفسير: ليس المراد من قوله تعالى ﴿وَسَيُجنَّبُها الأتْقَى﴾ أن أتقى الناس هو الذي سوف يُجنَّب دخول النار، أما المؤمن العادي فلن يُجنَّبها، وإنما الواقع أن كلمة ﴿أتْقى﴾ جاءت للمقارنة بين مؤمن وكافر وليس بين تقيّ وتقي آخر، حيث بين الله تعالى أن هناك فريقين يدّعيان التقوى الآن، ولن يُجنّب نار الجحيم إلا أتقى الفريقين الذي يبغي رضا الله تعالى بإنفاقه ماله، حيث يقول الله تعالى للكافرين إنكم أيضًا تدَّعون أنكم أهل التقوى كما يدّعي المؤمنون، وها نحن نخبركم أن المؤمنين هم أهل التقوى، وأنكم كاذبون في ادعاء التقوى. إذًا فالمقارنة هنا بين تقوى المؤمنين الحقيقية وتقوى الكفار الزائفة، ولا تعني هذه الآية أنّ أتقى المتقين هو الذي سيدخل الجنة أما المؤمنون الذين يكونون أدنى منه تقوى فلن يدخلوها. ذلك أن هذا المفهوم يتعارض تماما مع الآيات القرآنية العديدة حيث صرّح الله في واحدة منها ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾(الزلزلة:٨).. أي أن الله تعالى لن يضيع خيرًا فعَله أي إنسان ولو كان بقدر ذرة. فالحق أن كل مؤمن وكل تقي سيدخل الجنة، سواء مَن بلغ أعلى درجة من التقوى أو من بلغ أدناها. فما دام القرآن الكريم يصرح بهذا الأمر فلا يجوز تفسير هذه الآية بأنه لا يُجنَّب نار جهنم إلا الأتقياء من الطراز الأول.

وقد زاد الله تعالى هذا الموضوع شرحًا في الآيات التالية التي بيَّن فيها مَن هو الأتقى.

ٱلَّذِى يُؤۡتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٍ تُجۡزَىٰٓ ﴿١٩﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا مَن هو الأتقى، فأخبر أن مَن يعطي ماله من أجل التزكِّي هو الأتقى. فقوله تعالى ﴿يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾ يعني أنه يؤتي ماله حال كونه يتزكَّى.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا لأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى﴾.. أي لا يكون عليه منّةُ أحد يحاول أن يجزي صاحبَها بهذا الطريق، وإنما يريد بعمله أن يحسن إلى الآخرين بأي طريق بدون أن يكون أحد قد أسدى إليه معروفًا.

إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

وجه: الوجه: المرضاة (الأقرب).

التفسير: من علامات المؤمن أنه لا ينفق ماله جزاءً لمن أحسن إليه، وإنما يُخرِج الصدقات لمساعدة بني نوع جنسه ابتغاءَ مرضاة ربه الأعلى.

لقد ذكر الله هنا صفته ﴿الأَعْلَى﴾ إشارةً إلى أن الناس يحسنون إلى الآخرين بدون شك، ولكن المحسن الحقيقي وأكبر المربِّين هو الله في الواقع، ومن أجل ذلك يقدّم المؤمن رضاه على رضا المحسنين الآخرين كلهم، ويدرك أنه إذا قام بأعماله ابتغاء ربه الأعلى فكأنما قد أحسن إلى كل مَن أحسن إليه، لأن الله تعالى هو مصدر كل إحسان.

وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

التفسير: يبين الله تعالى هنا أنه سيرضى حتمًا عمّن ينفق ماله على الآخرين ابتغاء مرضاة الله فقط، وليس ليجزي محسنًا قد سبق أن أحسن إليه. فما دام يبتغي مرضاة الله تعالى جاهدا، فلا بد أن يرضى الله عنه. إذا ضحى العبد الضعيف عديم الحيلة بماله لوجه الله خالصةً غيرَ مكترث برضا الناس، فمن المستبعد جدا أن لا يخلع الله عليه رضاه، ولا يدخله في أحبائه. لا بد أن يفوز هذا الإنسان بمراده ويرث رضوان الله في نهاية المطاف إذ لا يريد من الناس جزاءً على تضحياته خلافًا لدأب أهل الدنيا، فإن الناس يضحون في الدنيا طمعًا في مجد أو صيت أو منْصب أو رضا مسؤول أو زيادة راتب، أما الذي يطهّر قلبه من شوائب الأغراض المادية بكل أنواعها، ولا يريد من الناس ثناءً ولا هتافًا ولا عزًّا، وإنما أن يرضى الله عنه وأن يكون في عونه كما هو في عون عباده، وأن يعفو عن ذنوبه، فإن الله تعالى يقول: إن عبدي هذا قد خرّ على عتبة بابي معرضا عن عتبات أبواب أهل الدنيا كلهم، وتَرَك رضا الجميع مؤثرا مرضاتي، فلمَ لا أخصّه بعنايتي؟ سوف أرضى عنه وأمنحه قربي كما هو قد ضحّى بأمواله ابتغاء مرضاتي.

وقول الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ يماثل معنًى قولَه تعالى ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾(الفجر:٢٨-٢٩)، والفرق الوحيد أنه تعالى قال هناك ﴿رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً﴾، بينما قال هنا ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾. فحيث إن رضا العبد كان ينحصر في رضا الله عنه، فأخبر الله تعالى ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾.. أي أن هذا العبد أيضًا سيصبح مرضيا عنده تعالى. وحيث إن العبد قد فاز ببغيته، فسيرضى عن الله الذي رضي عنه. وما دام قد فاز بهذا المقام فمن المؤكد أن يتحقق فيه قوله تعالى ﴿فادْخُلي في عِبادي * وادْخُلي جَنَّتي﴾(الفجر:٣٠-٣١)، فمن دخل الجنة نجا من كل مكروه.

باختصار، قد بين الله تعالى في هذه السورة أن المسلمين سيفلحون في الدنيا، ولكن الكفار لن يفلحوا رغم معارضتهم الشديدة. إن جهود المسلمين وتضحياتهم وتكاسُل الكفار وتردُّدهم في التضحيات، واتصافَ المسلمين بصفتي الإفاضة والاستفاضة وحرمانَ الكفار منهما، لن تكون نتيجته واحدة للفريقين، إذ شتان بين أعمال الطرفين. فسوف يقبل الله من المسلمين أعمالهم، ولن يرضى عن أعمال الكافرين. لا شك أن الله تعالى لم يذكر أنه لن يرضى عن أعمال الكفار، لكن هذه النتيجة بديهيّة تلقائيّة، فنتيجة لأعمالهم لن يحظى الكفار برضا الله تعالى، بل يصبحون عرضة لغضبه ويُدمَّرون ويبادون.